الدرس السادس :

اليسير من الرياء شرك

روى ابن ماجه والحاكم في صحيحه ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، خرج يومًا فوجد معاذ بن جبل يبكي عند قبر النبي ﷺ ، فقال له : ما يبكيك؟ فقال : حديث سمعتُه من رسول الله ﷺ ، قال : «**اليسير من الرياء شرك ، وإن مَن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمُحاربة ، وإنَّ الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا ، وإذا غابوا لم يُفتقدوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مُظلمة**»[1]. (صدق رسول الله) .

هذا الحديث ـ أيها الأخوة ـ يُحذِّر من الرياء ، ويحثُّ على الإخلاص ، ويُنوِّه بالمُخْلصين الذين لا يُريدون الدنيا ، ولا يرجون ما عند الناس ، وإنما يُوجِّهون همَّهم إلى ما عند الله عز وجل .

معنى الإخلاص :

الإخلاص هو إرادة وجه الله تعالى بالعمل ، وتصفيته من كل شَوْب دنيويّ ، فلا يُلازم عمله ما يشوبه من الرغبات العاجلة للنفس ، من إرادة مغنم ، أو منصب ، أو مال ، أو منزلة ، أو شهرة في قلوب الخلق ، أو طلب مدحهم ، والهرب من ذمِّهم ، أو اتِّباع هوى خفيٍّ ، أو غير ذلك من العِلل والشوائب ، التي عَقْدُ مُتفرِّقاتها هو إرادة ما سوى الله بالعمل كائنًا ما كان .

---

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٨٩) ، والطبراني في الصغير (٨٩٢) ، وفي الأوسط (٧١١٢) ، والحاكم في الإيمان (٤٤/١) ، وصححه وقال : وقد احتجا جميعا بزيد بن أسلم عن أبيه عن الصحابة ، واتفقا جميعا على الاحتجاج بحديث الليث بن سعد عن عياش بن عباس القتباني ، وهذا إسناد مصري صحيح ، ولا يحفظ له علة ، ووافقه الذهبي ، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (٢٠٦/٣) ، قلت : وأما في زوائد ابن ماجه فضعفه بابن لهيعة مع أن الراوي عنه هو عبد الله بن وهب ، والتحقيق أنه إذا روى عنه أحد العبادلة الأربعة ، ومنهم ابن وهب فحديثه مقبول ، ويصححه كثير من المحققين . انظر : المنتقى حديث رقم (١٩) .

OBEIKAN.COM

الإخلاص ثمرة التوحيد :

والإخلاص بهذا المعنى ثمرة من ثمار التوحيد الكامل ، الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة . . . لهذا قال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: ١١٠).

ومن هنا عدَّ النبي ﷺ الرياء ـ وهو ضدَّ الإخلاص ـ من الشرك : « اليسير من الرياء شرك »، وقال :« الرياء : الشرك الأصغر »[١]، وفي رواية « إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ». قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال :« الرياء »[٢].

النيَّات أشدُّ على العاملين من الأعمال :

وتصفية العمل من الشوائب والرغبات الدنيوية ، ليس بالأمر الهيِّن ، كما يظن بعض الناس ، فإنه انتصار على الأنانية وحب الذات ، وفناء عن حظوظ النفس وأغراضها العاجلة ، وهذا يحتاج إلى مجاهدة طويلة للنفس ، ومراقبة دائمة لمداخل الشيطان إليها ، وتنقية لها من عوامل الدَّغَل ، وحُب الجاه والظهور ، وهي عوامل غلاَّبة ، ذات سلطة وتأثير على النفس البشرية .

ولهذا سُئل بعض الصالحين : أي شيء أشدّ على النفس؟ فقال : الإخلاص . لأنه ليس له فيها نصيب . وقال غيره : تخليص النيَّات أشد على العاملين من جميع الأعمال[٣].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٨٩/٧)، وفي مسند الشاميين (٢١٤٦)، والحاكم في الرقاق (٣٢٩/٤)، وصحح إسناده ، والبيهقي في الشعب باب إخلاص العمل (٦٨٤٤١) ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥) .

(٢) رواه أحمد (٢٣٦٣١)، وقال محققوه : إسناده صحيح ، والطبراني في الكبير (٢٥٣/٤)، والبيهقي في الشعب باب إخلاص العمل (٦٨٣١)، عن محمود بن لبيد ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٢٩٠/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥١).

(٣) قول أيوب السختياني ، انظر : إحياء علوم الدين (٣٧٨/٤) .

OBEIKAN.COM

بل بالغ بعضهم فقال : طُوبى لِمَنْ صحَّت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى[1]. ومن الناس مَن تراه فتظنَّه يعمل للدين بحرارة وصدق ، وأنه يعبد الله بإخلاص ، بل ربما ظنَّ نفسه هو كذلك ، فإذا فتشتَ في قلبه وسَبَرْتَ حقيقة نواياه ، وجدتَه طالب دنيا في ثوب صاحب دين ، وقد لا يكون له مطمع من وراء هذا العمل الآن ، ولكنه يأمل في الغد ، ويأمل أن تستدير له الريح .

إنَّ الله لا يقبل القلب المدخول ولا يقبل العمل المدخول ، إنه لا يقبل العمل المُشترك ولا القلب المُشترك ، العمل المُشترك لا يقبله ، والقلب المُشترك لا يُقبل عليه ، إنه يريد القلب الخالص والعمل الخالص : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢،١٦٣)، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (البينة:٥).

من دلائل الإخلاص :

إنَّ للإخلاص دلائل وعلامات كثيرة ، تظهر في حياة المُخلص وسلوكه ونظرته إلى نفسه وإلى الناس .

إن من دلائل الإخلاص :

١- مخافة الشُّهرة :

أن يخاف الشُّهرة على نفسه ودينه ، وخصوصًا إذا كان من أصحاب المواهب ، وأن يُوقن بأن القَبول عند الله بالسرائر لا بالمظاهر ، وبالقلوب لا بالصُّور ، وإن إنسانًا لو طبقت شهرته الآفاق وهو مدخول النية ، لم يُغْنِ عنه الناس من الله شيئًا ، وهذا ما جعل كثيرًا من علماء السلف وصالحيهم يخافون على قلوبهم من فتنة الشهرة ، وسحر الجاه والصيت ، ويُحذِّرون من ذلك تلاميذهم ، فقد روى الإمام الغزالي من ذلك أشياء كثيرة .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين (٣٧٨/٤) .

OBEIKAN.COM

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما صَدَق الله من أحب الشهرة .

وعن خالد بن معدان أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة[1].

ورأى طلحة قومًا يمشون معه نحواً من عشرة : فقال : ذباب طمع ، وفراش نار[2].

وكان أبيُّ بن كعب يمشي مرة ، وخلفه جماعة من الناس ، ورآه عمر فعلاه بالدِّرَّة . فقال أبيٌّ : انظر يا أمير المؤمنين ماذا تصنع؟ فقال عمر : إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[3]. وهي لفتة عُمرية نفسيَّة لما قد تحدثه هذه المظاهر البسيطة في بدايتها من عواقب وآثار بعيدة الغور في نفسية الجماهير التابعة والقادة المتبوعين .

هكذا ينبغي للمؤمن أن يحرص ، وأن يخاف على نفسه من هذا كله ، والله تعالى لا يقبل الناس بشُهرتهم ولا بجاههم ، فـ« رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره»[4]، « إنَّ الله يحب الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا حضروا لم يُعرفوا ، وإذا غابوا لم يُفتقدوا».

٢- اتِّهام النفس :

إن المُخلص يتَّهم نفسه دائمًا بالتفريط في جَنْب الله ، والتقصير في أداء الواجبات ، ولا يُسيطر على قلبه الغرور بالعمل والإعجاب بالنفس ، بل هو دائمًا يخشى من سيئاته بألا تُغْفر ، ويخاف على حسناته ألا تُقبل ، وقد بكى بعض الصالحين في مرضه بكاءً شديدًا ، فقال له بعض عوَّاده : كيف تبكي؟ وأنت الذي صمتَ وقمتَ ، وجاهدتَ وتصدَّقتَ ، وحججتَ واعتمرتَ ، وبلَّغتَ وذكَّرتَ ؟

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٤٦) .

(٢) انظر : إحياء علوم الدين (٣/٢٧٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٨) ، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٥١) .

(٤) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤) ، وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه ، والطبراني في الأوسط (٨٦١) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد وقصر الأمل (١٠٤٨٢) ، عن أنس ، وقال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عبد الله بن موسى التيمي وقد وثق ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، غير جارية بن هرم ووثقه ابن حبان على ضعفه ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٢٨) .

فقال : وما يدريني أن شيئًا من هذا في ميزاني ، ما يدريني أن هذا مقبول عند ربي ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة:٢٧) ، والتقوى في القلوب ، ما يدريني أنني من المتقين حتى تُتقبل مني هذه الأعمال .

وقد سألت السيدة عائشة رسول الله ﷺ عمَّن يصدُق عليه قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ (المؤمنون:٦٠) ، أهم الذين يسرقون ويزنون ويشربون الخمر وهم يخافون الله عز وجل؟ فقال : « لا يا بنت أبي بكر ، يا ابنة الصديق ، ولكنه الذي يُصلِّي ويصوم ويتصدَّق ويخاف الله عز وجل ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (المؤمنون:٦١) »[1] .

ومن صفات المُخلص : أن يكون العمل الصامت أحب إليه من العمل الذي يحفُّه ضجيج الإعلام وطنين الشهرة ، إنه يُؤْثر أن يكون من الجماعة كالجذر من الشجرة ، بالجذر قوامها وحياتها ، ولكنه مستور في باطن الأرض لا تراه العيون ! أو يكون كالأساس من البناء .

خفيَ الأساسُ عن العيون تواضعًا ... من بعد ما رفع البناء مشيدًا

٣- العمل بعيداً عن الأضواء :

ومن صفات المُخلص لله : أن يستوي عنده العمل قائدًا والعمل جنديًّا . . . ما دام في كلا الأمرين خدمةَ دينه ، وإرضاءَ ربه ، فلا يستولي على قلبه حب الظهور ، وتصدُّر الصفوف ، والرغبة في الزعامة ، واعتلاء المراكز القيادية . . . بل ربما آثر الجُندية خشية التفريط في واجبات القيادة ، وتبعات التصدُّر ، وعلى كل حال لا يحرص على شيء ، ولا يطلب الزعامة لنفسه ، ولكن إذا حُمِّلها حملها ، واستعان الله على القيام بحقها ، وقد وصف النبي ﷺ هذا الصنف من الناس فقال :

---

(١) رواه أحمد (٢٥٢٦٣) وقال مخرّجوه : إسناده ضعيف لانقطاعه ، عبد الرحمن بن سعيد ابن وهب الخيواني لم يدرك عائشة ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٧٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨) ، والحاكم في التفسير (٣٩٣/٢) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب الخوف من الله تعالى (٧٦٢) ، عن عائشة ، وعلق العراقي في تخريج الإحياء على تصحيح الحاكم فقال : بل منقطع (٧٠/٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٣٧).

«طوبى لعبد أخذ بعِنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مُغبرة قدماه ، إن كان في الساقة كان في الساقة ، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة»[1]، أي : حيث وُضع عمل .

٤- ألا يطلب المدح من الغير ولا يغتر به :

ومن صفات المُخلص بعد ذلك : ألا يبالي برضا الناس ، إذا كان من وراء رضاهم سخط الله عز وجل ، فإنَّ الناس يختلفون أشدَّ الاختلاف في أمزجتهم وتفكيرهم وميولهم وأهدافهم . . . ولهذا يقول الشاعر :

ومَن في الناس يُرضي كل نفس ... وبين هوى النفوس مدى بعيد

وقال آخر :

إذا رضيت عني كرام عشيرتي ... فلا زال غضبانا عليَّ لئامها

تُرضي زيدا فتُغضب عَمْرًا ، وتحاول أن تكسب هذا إلى جانبك ، فيبعد ذاك عنك ، إذن فاعمل على إرضاء الله ، ولا تُبالِ بالناس ، ما دام الله معك ، ورضي الله عمَّن تمثل بقول الشاعر أبى فراس الحمداني يمدح الأمير سيف الدولة :

فليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

فجاء الصالحون فخاطبوا به الله تعالى ، وهو أحق من يخاطب بهذا الشعر :

فليتَ الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
وليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
إذا صحَّ منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب[2]

هؤلاء الجنود المجهولون ، الأتقياء الأخفياء ، هم الذين تقوم بهم الدعوات ، وتنتصر بهم الرسالات ، وتنهض بهم الأمم .

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧) ، والطبراني في الأوسط (٢٥٩٥) ، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (١٥٩/٩) ، عن أبي هريرة .

(٢) البيت الأخير للمتنبي والآخران لأبي فراس ، وكلاهما في سيف الدولة .

هم الذين لا يسعَون من أجل ذواتهم، أو من أجل أهواء أنفسهم، وإنما يعملون لله، ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (القصص:٨٣).

كن كصاحب النقب :

انظروا إلى هذا النموذج الحيِّ . . . يروي الأصمعي أنه حينما حاصر مَسْلَمة ابن عبد الملك حِصْنًا فندب الناس إلى نقبٍ نقبٍ فيه . . . فما دخله أحد، فجاء رجل من عرض الجيش غير معروف ولا مشهور، فدخل هذا النقب مع ما يتعرَّض له من الهلاك والموت، دخله وهجم على الكفار وفاجأهم وفتح الباب للمسلمين، ففتحه الله عليهم. فنادى مسلمة : أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد. فنادى : إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمتُ عليه. (يعني أقسم عليه إلا جاء)، فجاء رجل، فقال للحاجب : استئذن لي على الأمير. فقال له : أنت صاحب النقب؟ قال : أنا أُخبركم عنه، وأدلُّكم عليه.

فأتى مَسْلَمة وأخبره عنه، فأذن له، فقال له : إنَّ صاحب النقب يعرض عليكم ثلاثة شروط . . . أولها : ألاَّ تسوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، والثاني : ألاَّ تأمروا له بشيء . . . لا جائزة ولا مكافأة، والشرط الثالث : ألاَّ تسألوه مَن هو.

قال مَسْلَمة القائد : فذلك له . . . قال الرجل : أنا هو. فكان مَسْلَمة لا يُصلِّي بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلني مع صاحب النقب[1].

هذا هو الجندي المُخلص . . . هؤلاء هم المخلصون . . . هؤلاء هم الأتقياء الأخفياء، الذين إذا حَضَروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا لم يُفْتقدوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة. هم الذين يحبهم الله، ويرضى عنهم.

نسأل الله أن يجعلنا منهم، وأن يجعل لنا حظا من الاقتداء بهم . . . إنه سميع قريب[2].

* * *

---

(١) انظر : تاريخ دمشق (٣٦/٥٨).

(٢) راجع ما ذكرناه في كتابنا : (النية والإخلاص) من سلسلة (في الطريق إلى الله) طبعة مكتبة وهبة القاهرة.

OBEIKAN.COM